مجلة "منبر التراث الأثري"
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267
المجلد:03؛ العـــدد:01؛ (2014)
ص 207-233

عمارة الأبراج بضواحي مدينة تونس خلال القرن التاسع عشر

أ.بية عبيدي بالحاج
جامعة قفصة / تونس

مقدمة:

تعد ضواحي مدينة تونس، ونخص بالذكر الضاحية الشمالية، ومنذ الفترة الحفصية وإلى حدود أواخر العهد العثماني مكان تنزّه الملوك وراحتهم. ولا يزال عدد كبير من الأبراج والقصور والسرايات التي شيّدت خلال فترات تاريخية مختلفة قائما إلى اليوم. وهي تعكس جليا تطوّر ملامح وخصائص هذه العمائر الفريدة والفاخرة. ولقد لعبت هذه المباني دورا محوريا في تعمير الضواحي والارتقاء بوظائفها وتطوير مجالها المستغل معماريا واقتصاديا، وتدعيم بنيتها الأساسية. ولقد استغرق هذا التطوّر المجالي وخاصة العمراني قرونا قضتها الضواحي في مراوحة عسيرة بين الظهور والضمور. وكانت إعادة بنائها تنطلق في كل مرة بصفة خاصة من مقرّات النزهة. فباستقرار الحكام بها تصبح الضاحية محط اهتمام رجال السلطة والمقربين منهم وعامة الناس. فتتكاثف حركة إنشاء المباني واتخاذ المرافق المختلفة من سواني وبساتين، مما يجعل منها مشروع سلطوي بالدرجة الأولى. لكن الجدير بالذكر أن طول المراوحة وبقاء الضواحي مدة طويلة خالية ومهجورة لا ينفي تجذّر ظاهرة السكن والعمران في هذه المناطق والتي تعود إلى فترات قديمة جدا. ولا تعدو فترات الانتكاس - رغم طول مدتها- أن تكون استطرادا كبيرا في مسيرة التعمير الطويلة التي ستستقر وتكتمل في آخر العهد الحسيني. واستئناف عمليات النمو العمراني وإعادة نسجها من جديد يعود غالبا لاهتمام السلطة الرسمية بهذه المجالات.

ولقد ظهرت عمارة الأبراج المخصّصة للنزهة منذ بداية الفترة الحفصية وفق تصميم يستجيب لعدة رغبات ويتلاءم مع استعمالات متباينة، ومؤثرات خاصة بتلك الفترة استمدت ملامحها من تواجد وتظافر خبرات مختلفة محلية وأجنبية. وقد شهدت هذه العمارة تطوّرا كبيرا منذ ظهورها وإلى حدود القرن الثامن عشر حيث تمّ بناء أهم هذه المعالم على الإطلاق من حيث التصميم ووفرة مواد البناء المستعملة وتنوعها، واتساع وتعدد فضاءات المعلم الواحد. وتعود أغلب الشواهد الباقية إلى الآن إلى القرن التاسع عشر وهي تمثل من حيث التصاميم والأنماط المعمارية نقلة نوعية في مجال البناء سوف تنعكس على الحركة التعميرية بضواحي مدينة تونس عموما والضاحية الشمالية بصفة خاصة.

وسنحاول خلا هذا العمل تقصي زمن ظهور عمارة الأبراج والقصور بضواحي مدينة تونس وتتبع تفاصيل تطور الأنماط المعمارية المعتمدة خلال القرن التاسع عشر.

1. الملكية بضواحي مدينة تونس وبداية ظهور المنتزهات

لا تختلف الهياكل العقارية وطبيعة الملكية بضواحي مدينة تونس عن غيرها التي توجد حول المدن الكبرى والهامة في البلاد، سواء تعلق الأمر بالعهد الحفصي أو التركي. ويصطدم الحديث عن ضواحي مدينة تونس في بدايته بندرة المعلومات خاصة فيما يتعلق بالفترة الحفصية. فلا وجود لمعلومات مفصلة ومسترسلة اهتمت بهذا الجانب، والصورة بذلك غير واضحة وغير تامة الملامح. فلم نعثر على وثائق تتعلق بحصر للملكيات يعود إلى تلك الفترة يسمح لنا بتحديد طبيعة الملكية ونوعية الملاكين وطبقاتهم بكل دقة. كما لا تغطي المعلومات الواردة فترات طويلة. وتستعمل هذه المصادر من ناحية أخرى تعابير غير دقيقة لا تهتم بالحجم الفعلي لهذه الملكيات. وتقتصر على عبارات وصفية لا أكثر، كلفظ البستان والمرج والسانية والضيعة والهنشير دون تحديد. وتفيدنا الوثائق المتاحة سيطرة الملكية الخاصة الشاسعة والممتدة في العهد الحفصي. والتي هي ملك السلطان وعائلته وأتباعه، ثم في مرتبة موالية وبصفة أقل الأعيان من العلماء وأثرياء التجار وقواد الجيش نذكر منهم بصفة خاصة قواد العلوج وذلك لأهمية ملكياتهم وإقطاعا تهم تماشيا مع مكانتهم الاجتماعية وقربهم من السلطان فهم حرسه الخاص.

وأطلق على هذا النوع من الملكية عدة تسميات، ففي العهد الحفصي كانت تسمى "مختص الملك" أو "مختص الحضرة" أو الأملاك السلطانية ويقوم عليها صنف من الموظفين يطلق عليهم الوقافون[1]، أما في العهد الحسيني فقد عرفت أملاك البايات "بأراضي البايليك" أو" هناشر البايليك" التي يشرف عليها الوكلاء الذين يحرص البايات على انتقائهم من البيوتات الكبيرة وأحيانا من ذوي الرتب العسكرية- والملكية الخاصة التي تعرف بأسماء مالكيها والمقصود بها الملك التام وحرية التصرف وهي عكس الإقطاعات التي يمكن استعادتها وإعادة إقطاعها وفق رغبة الحاكم، وانه من الهام جدا أن تكون أراضي الضواحي وخاصة تلك التي احتوت على قصور ومسارح لنزهة الحكام على ملك الحاكم وأعوانه. و يمكن أن نستشف هذا الحرص من خلال ما قام به أحمد باي عند تأسيسه للمحمدية[2]، حيث قام بالتفويت في جملة من الأراضي المحيطة بمدينة الحكم الجديدة إلى عدد من أعوانهم وخاصة ذوي الوظائف العسكرية مع التنصيص عليهم بإقامة أبنية بها لتعمير نواحي المدينة، ولاستغلال الأرض المحيطة بها من جهة أخرى. ولم يكن يتسنى ذلك بمثل هذه السهولة والسرعة لو أن ملكية هذه الأراضي كانت لطرف أجنبي

عن دائرة السلطة وأعوانها. وتظهر هذه الملكية على مستوى الضاحية الشمالية والغربية في شكل قصور وأبراج تحيط بها بساتين تمتد على مئات الهكتارات. تجاورها أملاك الأعيان في شكل أبراج صغيرة تحدق بها ضياع وحقول ممتدة تغطي تقريبا كامل المجال المستغل من هذه المناطق. وتبقى الملكية الخاصة التي تمتلكها الفئات الوسطى من المجتمع محدودة وضعيفة. ونجد في الضاحية الشمالية أيضا الأحمية وهي الأراضي المحيطة بالرباطات الموجودة. وهي عموما غير مستغلة نظرا لقربها من البحر الذي كان يعد حينها مصدر خطر، كما أن عدد المرابطين المقيمين بها قليل ولا يسمح باستغلال هذه المساحات الشاسعة. وهي تمثل حزام أمن بين السواحل والسكان أو الأراضي المستغلة[3]. تغيّر وضع هذه الجهة في العهد الحسيني وأصبحت المنطقة بكاملها وإلى حدود السواحل مستغلة من طرف البايات والمخازنية وبعض الأعيان. وظلّ شكل الملكية الغالب هو السواني والضيعات. ونسجلّ في هذا الصدد ظهور الملكية الصغيرة والمتوسطة بكثرة في هذه المنطقة على عكس العهد الحفصي ويعود ذلك لتنامي ظاهرة الاستقرار والسكن بهذه الجهة نظرا لتغير الظروف الأمنية والسياسية.

وانتشر صنف آخر من الملكية بالضواحي وهي الأحباس بنوعيها العام والخاص. وقد وجدت خلال مختلف الفترات التاريخية الحفصية[4] والعثمانية[5]. ويعود انتشار الأحباس الخاصة إلى محاولة أصحابها حمايتها من جور السلطان وأتباعهم الذين كثيرا ما كانوا يلجأون للغصب بوسائل شتى لانتزاع الملكيات من أصحابها. وقد انتشرت بالضاحية الشمالية عدة أحباس وخاصة بمنطقة قرطاجنة[6]. وقد ظلّ بعضها إلى حدود العهد الحسيني مثل حبس ابن الابار[7] المجاور حسب وثائق الأرشيف لاحباس قصر العبدلية بالمرسى والذي توارثته ذريته حتى ذلك العهد[8]. و ظلّ هذا الصنف من العقارات متواجدا في الضاحية الشمالية خلال الفترة الحديثة في شكل أحباس القصور وهي كثيرة في المنطقة. وكذلك الاحباس العامة وخاصة تلك التي تخص زاوية سيدي بوسعيد. وقد دأب البايات على معاوضة هذه الأحباس واستغلالها وفق أساليب مختلفة على غرار برج العبدلية وبساتينه التابعة له وهنشير سيدي علي الحطاب الذي كان محبسا على زاويته والذي تحول مع منتصف القرن التاسع عشر إلى ملكية خاصة للباي عن طريق المعاوضة[9].

كما ظهرت خلال العهد الحسيني وتنامت الملكية الأجنبية بضواحي مدينة تونس. وقد تأكدت هذه الظاهرة خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة تظافر عدة معطيات اقتصادية واجتماعية وسياسية وصدور عهد الأمان ودستور 1861م الذي أمّن الجاليات الأجنبية وعزّز مكانتها الاقتصادية والاجتماعية بإعطائهم حق التملّك. وينتمي هؤلاء الملاكين الأجانب

إلى فئة التجار وهم من جنسيات مختلفة فرنسيون وجنويون ومالطيون[10]. وقد حصل هؤلاء الأجانب على أراضي شاسعة وملكيات كبيرة. فجوزا ف وانسو كان يملك هنشير مقرين بأكمله، في حين يمتلك فلوكيكار ثلاثمائة أصل زيتون بمرناق. كما حازوا عدة ضيعات وسواني بالمنطقة مثل فليب الطليان الذي يملك سانية بالموضع أيضا[11]. كما وجدت الملكية الأجنبية بدورها في الضاحية الشمالية وعرف أصحابها بمباشرتهم العمل ألفلاحي. وقد وردت الإشارة إلى البعض منهم في إطار الاعتراض على مد سكة الحديد لأضرارها بأراضيهم[12]. ويعود انتشار هذه الملكية نتيجة عدة ظروف خاصة بالفترة الحسينية سنتعرض لها في اوانها.

من خلال النظر في طبيعة الملكية وتوزعها بضواحي مدينة تونس خلال العهدين الحفصي والحسيني، نلاحظ إجمالا أن هذه الملكية كانت شاسعة ومتنوعة: هناشر، ضيعات، حقول وبساتين. واختصت بمنتوج متنوع ومختلف. كما كانت أراضي الضواحي طيلة هذه الفترة تحت تصرف الدولة وأتباعها وثلّة من الأعيان الموالين لها. والملاحظ أيضا أن الملكية الخاصة الصغرى والمتوسطة كانت شبه منعدمة في هذه المناطق. وقد لاحظنا بعض التطورات خصت الفترة الحسينية على غرار تراجع ملكية البايليك لفائدة الخواص نتيجة التفويت وكثرة الاقطاعات. وظهور الملكية الأجنبية في الضواحي المحيطة بالمدينة والتي ستكون فاتحة عهد جديد في تاريخ مدينة تونس وضواحيها. ويظهر لنا مما سبق أن لطبيعة هذه الملكية دور محوري في ظهور الأبراج المخصصة للراحة والتي تزايد عددها بشكل مطّرد خلال الفترة الحسينية.

2. ضواحي مدينة تونس في العهد الحسيني

يعتبر العهد الحسيني إجمالا صفوة العهود في تاريخ الضواحي المنتزهات حول مدينة تونس حيث بلغت فيه الغاية من الأمن والازدهار وأدركت درجة غير مسبوقة من العمارة الضخمة والأبراج المشيّدة، بدليل الشواهد العمرانية الباقية بهذه الضواحي والتي تعود كلها إلى تلك الفترة. وأصبحت الحاضرة وضواحيها خلال هذا العهد أعمالا مختلفة عكس ما كان سائدا في الفترة الحفصية. حيث مثلت الحاضرة وضواحيها عملا واحدا يعود نظره للسلطان مباشرة أو لمن أنابه في ذلك بأمر مباشر[13]. و قد كان «عمل تونس المحروسة» يضم كامل الضاحية الشمالية والغربية إلى حدود عين زميت على طريق باجة، وإلى قصر الزيت و جبل زغوان وكامل فحص مرنا ق والمرناقية جنوبا[14]. و تفيدنا وثائق الأرشيف وخاصة دفاتر الإعانة وتجاريد إحصاء السكان أن أحواز الحاضرة - وهو الاصطلاح الجديد المستعمل في هذه الفترة كتسمية للضواحي - منقسمة إلى أعمال منفصلة، شمالية وجنوبية. ويدحض ذلك ما يورده بيرم الخامس

في صفوة الاعتبار بأن الحاضرة والمناطق الملاصقة لها إلى حدود عشرين ميلا من كل جهة هي عمل واحد[15]. و لا يعكس هذا التطور على المستوى الإداري تطورا في الرقعة الجغرافية وإن كان حاصلا بقدر ما هو انعكاس للتطور العمراني والسكاني حتى أصبح من الصعب الاهتمام بها في عمل واحد وتحت إشراف عامل واحد، بل استدعى الأمر قيادات وإدارت مختلفة. فمدينة تونس أو الحاضرة تعتبر عملا يخضع مباشرة للإدارة السياسية المركزية ويسهر على ضبط الأمن فيه وفضّ النزاعات رئيس الضبطية.

أما بقية القطر بما في ذلك الضواحي فهو مقسم إلى قيادات على رأس كل منها عامل يساعده على إدارة عمله مجموعة من الموظفين على اختلاف درجاتهم. فنجد النائب والشيخ والخليفة، وتفيدنا وثائق الأرشيف إن عادة ما يكون هؤلاء من أهل العمل ومن بيوت كبيرة داخله وذوي أملاك[16]. وكان أغلب العمال يحصلون على وظائفهم عن طريق الشراء والاتفاق يقيمون بالحاضرة ويكتفون بالمراسلات مع النواب والشيوخ ليعلموا أحوال العمل الراجع إليهم بالنظر وإصدار الأوامر والتعليمات وفق ما يوفره لهم النواب والشيوخ من معلومات. وهو ما وسعّ نفوذ الشيوخ والنواب على حد السواء إذ هم المشرفون المباشرون لهذه الأقاليم وأداة التنفيذ فيها خاصة قبل إنشاء الإصلاحات وإصدار القوانين والتنظيمات الخاصة بالقرن التاسع عشر[17]. فهم يقومون بإحصاء السكان واستخلاص الإعانة، النظر في الجنايات ورفع محاضرها، جلب المطلوبين والاهتمام بمختلف النزاعات التي تنشأ في المناطق الراجعة لهم بالنظر[18].

وكانت الضاحية الشمالية تسمى «قيادة حلق الوادي» أو» قيادة المرسى» وأحيانا نجد جمع المنطقتين معا حيث يطلق عليه «عمل المرسى و حلق الوادي»[19]. والواقع أن الرقعة الجغرافية لهذا العمل تتجاوز هاتين المنطقتين، فوفق تجريدة لإحصاء الأماكن و السكان لسنة 1279هـ = 1862م بهدف الجباية نجد أسماء المناطق المكونة لهذا العمل و الحارسين له[20]. يتكون هذا العمل من القرى أو المشائخ التالية بالحدود المبينة كما يلي:

-**مرسى قرطا جنة:** وتقع شمال مشيخة المعلقة وسيدي بوسعيد، و يحدها من الغرب سيدي داوود، ومن الشرق البحر إلى حدود قمرت وسكرة. و كانت هذه المنطقة بأسرها تعود لنظر الشيخ أحمد بالحاج محمود.

- **جبل المنار:** يمثل البحر حدوده الجنوبية والشرقية، في حين وقع ذكر بعض الأملاك الخاصة معرفة بأسماء أصحابها اعتمدت لضبط الحدود الشمالية والغربية. مما يطرح استفهاما حول ضوابط هذا التقسيم الاداري ونجاعته. و يبدو أن هذه المشيخة كانت أكثر امتدادا من الأولى

حيث كان يشرف عليها شيخ ونائب في بعض جهاتها وهما الشيخ محمد بن محمد بن فايزة و نائبه أحمد بن صالح بن زيتون.

- **قمرت:** يحدها البحر من الجنوب والشرق، ويذكر الطريق كحدها الشمالي دون توضيح يسمح بضبط امتدادها في هذه الجهة، وتمثل السبخة حدها الغربي. ويشرف على إدارتها شيخ لم يقع ذكر مساعدين له وهو أحمد بوزيد.

- **سيدي داود:** اعتمد في ضبط حدود هذه المنطقة على جملة من الاحباس وموقعها بالنسبة لأهم طرقات الجهة في ذلك الوقت، حيث ذكر طريق العبدلية كحد شمالي إلى جانب حوش المكناسي -الذي يبدو انه ملكية خاصة لأحدهم- إلى جانب هنشير جامع الزيتونة البراني-الذي يرجح انه من أوقاف جامع الزيتونة - وكذلك فدان الدخان للقشلة دون توضيح القشلة المعنية و لا نوعية استفادتها من هذا العقار ولا ما هي وضعيته هل هو ملكية خاصة بأحد العساكر الكبار أو حبس عام للقشلة المقصودة، هذا دون تحديد الضوابط المذكورة و لا تحديد موقع احدها بالنسبة للآخر ولا في أي اتجاه تقع. نفس الشيء بالنسبة للحد الجنوبي الذي مثله طريق سيدي بوسعيد، وطريق حلق الوادي و قمرت من الناحية الشرقية، أما الناحية الغربية تحدها مجموعة من الهناشر الخاصة ذكرت بأسماء مالكيها. (هنشير أولاد بن عبد الله وشراك حمودة وهنشير بن الرايس وهنشير الزنايدي و ورثة سيدي علي الدرويش ومرج لأولاد سويسي.) وتتمثل إدارتها المحلية في شيخها بلقا سم بن عبد الله الطرابلسي و نائبه محمد بوراوي.

و قد احتوى التقسيم أيضا على مجموعة من الهناشر وهي في نفس الوقت مشيخات كسابقيها ولكن غلبت عليها تسمية الهنشير لنوعية الملكية المسيطرة بها ولطبيعة النشاط الفلاحي الأساسي بها والمعتمد على الزراعات الممتدة على مساحات كبيرة، كما أنها تختلف من ناحية نوعية السكن بها الذي عادة ما يكون أقل كثافة من القرى المذكورة ومتفرقا وهو عبارة عن "دوَّار" كما لا توجد ضيعات بهذا المكان ولا أبراج. وهذه الهناشر المكونة للضاحية الشمالية هي:

- **هنشير رواد:** يقع جنوب سبخة أريانة، ويحده شرقا البحر، وغربا جبل سيدي عمر. ويديره شيخه الحاج محمد بن طراد الطرودي وهو كبير الهنشير المذكور بمساعدة نائبه الحاج محمود بن صالح الغرياني.

- **هنشير بحرون:** يقع شمال الهنشير السابق ويحده من جهاته المختلفة البحر وبعض الأراضي الخاصة ويقوم على شؤون هذا الهنشير كبيره علي بو كريم الطرابلسي.

- **هنشير بو حنش:** تحيط به مجموعة من الهناشر تمثل حدوده الجغرافية ذكرت وفق أسماء أصحابها وموقعها من الطريق الرئيسية في المنطقة. ومثل بقية الهناشر يشرف عليه كبيره أحمد بن أبي بكر الغرياني ولم يذكر وجود نائب لهذا الهنشير.

- **هنشير خارجه:** مثلت حدوده الرئيسية وادي المالح إلى جانب بعض الهناشر الأخرى. ويقع هذا الهنشير تحت إدارة شيخان وهما حسين أبي علي زغاب و الحاج أبي القاسم زغاب. وربما يعود ذلك لأهمية هذا الهنشير من الناحية الجغرافية و العمرانية.

- **هنشير تبياض:** يحده من الجنوب وادي المالح، وشرقا القصر - و لم يقع توضيح بشأن هذا القصر ولا ذكر لصاحبه ولا موقعه- وشمالا وادي مجردة، وغربا مزرعة خاصة ذكرت باسم صاحبها. وهو لنظر علي بن محمد غياضه.

- **هنشير سمايه:** يحده قبلة وادي المالح، وشرقا كذلك، وجوفا وادي مجردة والقنطرة، وغربا هنشير الحاج عميرة. هو لنظر علي الشرع الطرودي كبير الهنشير المذكور.

- **هنشير ميصرة:** يقع هذا الهنشير بين وادي المالح وطريق بنزرت. وهو تحت إشراف الشيخ محمد بن علي الكعبي.

- **هنشير السيد إسماعيل قايد السبسي:** توحي التسمية بأن هذا الهنشير يمثل ملكية خاصة، أو ربما هو احتفظ بتسمية قديمة أو أن اسم صاحب اكبر ملكية في المنطقة قد غلبت على تسمية الهنشير ككل. وهو يقع وسط مجموعة من الهناشر و طريق بنزرت.

- **هنشير الخلدي:** يحده قبلة هنشير سيدي يونس، وشرقا طريق فيشانة، وجوفا هنشير الدلاعية، وغربا طريق قبر الجاهلي. و هو لنظر حمدة بن سعد الجلاصي.

- **دوار الشط:** يقع بين البحر ودواميس المعلقة و البحيرة. ويشترك في إدارة هذه الرقعة الترابية الشيخ محمد بن عبد النماد و يعينه في ذلك كبراء الدوار دون ذكر أسماء محددة و يبدو أنهم يختارون وفق مكانتهم الاجتماعية التي تحددها ثرواتهم.

وما يميز هذا العمل أنه يعود بالنظر إلى وزير البحرية أو أحد ضباطها الكبار وجوبا. وقد احتفظت لنا وثائق الأرشيف بأسماء بعض من تولوا مهام هذه الضاحية:

العمال	الرتبة العسكرية	السنة/هـ
حسن[12]	أمير لواء	1275-1286
أحمد المورالي[22]	أمير ألآي	1288

شاكير[23]	أمير لواء	1292
نعمان خوجة[24]	أمير لواء	1302

و يعيّن العامل شيخا على رأس كل مشيخة يكون من كبار بيوتها. يستعين بدوره بنائب واحد أو اثنين بحسب حجم المشيخة أو الهنشير الذي يضم عادة دشرة أو دوّار أو مجموعة منها بحسب المساحة والأهمية. وقد ظلّ يغلب عليها الطابع الريفي إلى حدود الفترة الحسينية المتأخرة. واحتفظت بوظيفة الظهير الفلاحي التي اضطلعت بها منذ الفترة الحفصية وقد اختصت بمنتوجات معينة مثل الخضر والغلال التي تنتجها سواني الأعيان المنتشرة بالمنطقة وكذلك الفول والذرة والتبغ وغيره، وتسوّق منتوجاتها بالحاضرة. وقد ساعد قربها من الحاضرة ووجودها في مجال سيطرتها المباشرة وخضوعها التام للسلطة المركزية إلى جعلها منتجع ملكي ممتاز لحكام البلاد وأعوانهم مما يضعها كمنطقة جغرافية في دائرة الاهتمام بصفة مستمرة. ويمتد نسيجها العمراني -المتكوّن في أغلبه من قصور وسرايات وأبراج محاطة بملكيات متنوعة وشاسعة- على كامل شريطها البحري الممتد من حلق الوادي إلى منتهى روابي قمرت. بالإضافة إلى منطقتها الخلفية المتكوّنة من أراضي المعلقة ودوّار الشط. وتربط بين مختلف هذه المناطق إلى جانب الطريق السلطانية وسكة الحديد، عديد الطرق الثانوية تصل مختلف القصور ببعضها ويمر بعضها إلى ضواحي أخرى و خاصة أريانة الملاصقة لها[25]. واحتفظت أغلب ضواحي مدينة تونس بنفس هذه الخصائص إلى سنة 1882م حسبما تظهره خريطة تعود لهذا التاريخ:

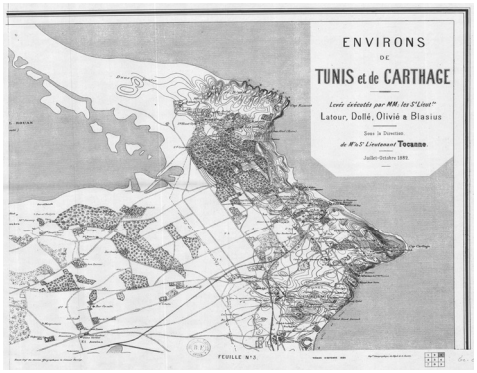

الضاحية الشمالية لمدينة تونس سنة 1882

تظهر من خلال هذه الخريطة قرى مرسى قرطاجنة وجبل المنار وقمرت التي تضم عدد كبير من القصور والسرايات الفاخرة التي بنيت على امتداد أكثر من قرن ونصف. كما تظهر بعض القرى الصغيرة مثل المعلقة ودوّار الشط وسيدي داوود كحزام أول محيط بملكيات القصور

والأبراج التي تتقدمها في اتجاه الشاطئ. وتلي هذه القرى بعض التجمعات الصغيرة تمثل النطاق الثالث لهذه المنتزهات في اتجاه الحاضرة، مثل تجمع العوينة وسيدي فرج الواقعة على الطريق المؤدية مباشرة إلى قصر العبدلية وكامل الضاحية الشمالية. أما بقية الهناشر المذكورة سابقا فتبرز فيها بعض التجمعات الصغيرة والمتفرقة وقعت الإشارة إليها بعبارة "أكواخ" للدلالة على نوعية بنائها البسيطة وهي مساكن العاملين في هذه الهناشر. تليها إلى الجهة الشمالية الغربية سواني سكرة التي تحتوي على منازل تتفاوت من حيث الحجم والفخامة. وهو ما يمكننا من اعتبار مجموعة الأبراج والقصور المذكورة نواة تشكل نسيج عمراني ذي خصائص معمارية فاخرة وطبيعة استغلالية ممتدة ومتنوعة. وسيبدأ هذا التطور منذ بداية العهد الحسيني. وستستفيد منه الضواحي بدرجات مختلفة حسب الاهتمام المفرد لكل جهة. في هذا الصدد تبرز الضاحية الشمالية الأكثر استفادة في هذا الخصوص، حيث سيتم استغلال مجالها بصفة بالغة وستتعدد القصور والأبراج والاقامات الفخمة بها وستتوزع في كامل المجال إلى حدود الشواطىء في المرسى وسيدي بوسعيد وقمرت وقرطاج وحلق الوادي ودوّار الشط[26]. لكن هذا الأمر تم في فترات مختلفة من العهد الحسيني. فالمرسى ظلّت معروفة منذ القرن الخامس عشر بفضل صمود قصر العبدلية وبقائه قيد الاستغلال، فقد كان حسين بن علي يرتاده للنزهة والراحة. وذكرت سكرة في نفس الفترة كمنتزه يرتاده الأعيان على غرار قاسم بن سلطانة الذي اتخذ بها برجا فخما زاره الباي وأعجب ببنائه[27]، فقد تكلّف له صاحبه من مواد الزخرفة الشيء الكثير وجلب له الرخام من ايطاليا والخشب المحلىّ من مصر، و قد قدر بعضهم تكلفة هذا البرج بأربعين ألف ريال في حين ضاعفه البعض الأخر بالقول انه استوفى ثمانين ألف ريال[28]. . وستنتظر أريانة، قمرت، قرطاج، سيدي بوسعيد وحلق الوادي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لتلتحق بركب المنتزهات الملكية ذات القصور والأبراج، وتحديدا خلال فترات حكم أحمد باشا باي 1837م ـ 1855م ومحمد باي 1855م ـ 1859م ومحمد الصادق باي 1855م ـ 1882م حيث بنيت فيها أغلب القصور الباقية إلى اليوم، غير أن الاهتمام بها يعود إلى بداية فترة حسين بن علي 1705م ـ 1735م مؤسس الدولة الحسينية الذي أمر سنة 1713م بإحياء أجنّة منوبة التي تضررت كثيرا نتيجة مواجهته مع محلة الجزائر[29]. ولم يكن ذلك عن طريق البناء والتشييد وإنما عن طريق الحرث والغراسة، فنص السراج احتوى إشارة غير واضحة عن وجود ديار تجوس خلالها المياه في هذه الرياض[30]، دون ذكر لعددها أو لطبيعة عمارتها أو من تولىّ بنائها هل هو حسين بن علي أم هي ديار المراديين في هذا المكان أعاد إعمارها مع إحيائه للمنطقة. وسيتأكد هذا الاهتمام الذي خص به الباي هذه الضاحية مع أبنائه من بعده. وتعد

الضاحية الجنوبية الأكثر حظا في عهد هذا الباي حيث قام بتشييد برج بجهة المرناقية اعتمده كنقطة متقدمة في اتجاه الدواخل حيث كان يلتقي فيه برؤساء البدو كما هو شأن حفيده من بعده حمودة باشا باي 1782م ـ 1814م. وكان هذا البرج يشتمل على حامية للجيوش أثناء الحروب. كما كان له دورا إنتاجيا لارتباطه بالأراضي المحيطة به. حيث كان حمودة باشا يباشر بنفسه الإشراف على الفلاحة بالهنشير التابع لهذا البرج[31]، وكذلك كان له ارتباط بأفران الجير الموجودة قربه والتي يبدو أنها على ملك البايليك حيث كان يشرف عليها وكيل القصر ويتابع إنتاجها. وقد نقل لنا Charles Lallemand وصفا دقيقا لهذا البرج[32]. ويمكن تفسير بساطة إنجازات حسين بن علي المعمارية في الضواحي ومحدوديتها لاهتمامه بالتشييد داخل مدينة تونس وخارجها في الحواضر الكبرى وتحصينها مثل القيروان والكاف. ويمكن إرجاع ذلك أيضا لاهتمامه بقصر باردو الذي حوله إلى مدينة حكم محصنة. وتجلّى اهتمامه بالضواحي أيضا من خلال تركيز الأمن فيها وعنايته بفلاحتها وخاصة غابة الزيتون التي أحياها بعد أن شارفت على الانقراض[33]. ثم سيتراجع عمرانها أثناء الفتنة الحسينية الباشية، ولن تحقق نموا كبيرا أثناء فترة على باشا الذي كان منصرفا طوال الوقت لتحصين البلاد تحسبا لعودة أبناء عمه، ولإنجازاته داخل المدينة[34]. ولا نعد من إنجازاته في الضواحي سوى مباني حمام الأنف التي قام بتشييدها بعد وفاة زوجته كبيرة مامية سنة 1747م. لكن البناء لم يتم قبل سنة 1750م. ويذكر سنة 1755 أنه قصدها رفقة حاشيته للاستراحة[35]. وكانت هذه المباني عبارة عن وكالة يقع كرائها للمسافرين والذين يقصدون المنطقة لغاية التداوي. وقام كذلك ببناء بيت لاستعماله الخاص وكان متواضعا هدمه حسين باي وشيّد مكانه قصر حمام الأنف الذي لا يزال قائما إلى الآن. لكن هذه الضاحية التي شدت انتباه علي باشا نتيجة حادثة موت زوجته ستتضرر أكثر من غيرها أثناء حرب عودة أبناء حسين بن علي نتيجة النهب الذي مارسه الجزائريون والحنانشة في الحاضرة وضواحيها مدة شهر كامل[36].

لم ينجز محمد الرشيد باي بعد استقراره في الحكم الكثير من العمارات نظرا لقصر مدته التي لم تتجاوز الثلاث سنوات. والتي قضى أغلبها رفقة أخوه علي باي في تدارك مآسي فتنة رجوعهم للحكم. لكنه كان به مولعا بالنزهة ومرافقها وبه ميل للاستراحة والخمول. وقد خص باهتمامه لهذا الغرض ضاحيتين الأولى جنوب الحاضرة وهي المحمدية التي كان يرتاد متنزه أسطا مراد، والثانية غرب الحاضرة بجهة منوبة حيث شيّد قصره الفخم الذي عرف بقبة النحاس وتعود تسمية القصر إلى الكشك الذي بنيّ للحريم في هذا المكان[37]. وقد كان يقضي فيه غالب وقته موكلا شؤون الايالة لأخيه علي باي. و ستعرف منوبة ابتداءا من هذا التاريخ

مسيرة تاريخية طويلة مع عمائر النزهة من أبراج وقصور لتصبح في أواخر هذا العهد من أهم المنتزهات وقبلة الناس.

لم يقم علي باي 1759م ـ 1782م بإضافة مبنى خاص به للنزهة في إحدى الضواحي وإنما كان يرتاد قصري منوبة والعبدلية عند الحاجة. وسيتولىّ ابنه حمودة باشا بتشييد البرج الكبير بمنوبة والذي لا يبعد كثيرا عن قصر قبة النحاس المذكور آنفا. وهو يقع أيضا وسط الأجنّة التي أمر حسين بن علي بإحيائها سابقا على أنقاض برج حصين كان بناه علي باشا في هذا المكان[38]. وقد لعب هذا القصر أدوار مختلفة في فترات زمنية متباعدة ترفيهية وسياسية وعسكرية. ونتبيّن من خلال ما سبق أن العقود الأربعة الأخيرة من العهد الحسيني هي الفترة الأهم في مسيرة الضواحي العمرانية والمعمارية. حيث تعود أغلب القصور والسرايات الباقية إلى اليوم إلى تلك الفترة، التي برز فيها اهتمام غير مسبوق بالضاحية الجنوبية. فظهرت مباني حمام الأنف وقصور المحمدية جنوبا. نفس الشيء بالنسبة للضاحية الشمالية، حيث ظهرت سرايا حلق الوادي وقرطاج والمرسى وكذلك الكرم ودوّار الشط وأريانة التي مثلت مجال انتشار مباني الأعوان والأتباع متبعة في ذلك وتيرة انتشار مباني الأسياد محاكية في ذلك تطورها الكمي والنوعي.

3. تطوّر الطابع المعماري للأبراج بضواحي مدينة تونس

لقد اتخذت الاقامات والقصور الحسينية المشيدة في الضواحي أشكالا بنائية وأنماطا معمارية ارتبطت بحقب زمنية مختلفة. وسنحاول في هذا الصدد استجلاء تطوّر النمط المعماري لهذه الاقامات عبر الرجوع إلى الفترات الزمنية التي نشأت بها. وسنقتصر في ذلك على إبراز اختلاف النمط المعماري المعتمد في مواصفاته العامة وخطوطه العريضة دون التعرض للتفاصيل الدقيقة. و يمكن إجمالا تقسيم هذه الفترة من حيث التطور المعماري إلى فترتين: تقف الأولى مع نهاية حمودة باشا، وتبدأ الثانية مع حسين باشا باي 1824ـ 1835. واتسمت كل مرحلة بنمط معماري ونوع من المباني خاص بها أملته ظروف ومكان نشأة المعلم في حد ذاته.

فقد انتشرت عمارة الأبراج خلال القرن الثامن عشر وتحديدا في الفترة الممتدة من ولاية حسين بن علي إلى حدود ولاية حمودة باشا. وينتمي هذا النمط من المباني في الأصل إلى صنف التحصينات والمباني العسكرية حيث تكون تابعة للأسوار والقلاع كمنشآت دفاعية تحتل الأركان وجانبي البوّابات، أو يعلو المداخل. ويبنى عادة في أعلى نقطة من هذه الأبنية. ويكون مشرفا على الأماكن المحيطة ويكشف الرؤية لمسافات طويلة[39]. ونجد ذلك بقصر العبدلية الحفصي

والذي عرف خلال الفترة الحسينية ببرج السلاسل. ولا تخص تسمية البرج في العهد الحسيني الجزء البارز من المبنى، وإنما المعلم في حد ذاته رغم عدم اشتمال المبنى على برج استطلاع. وتتسم الأبراج باتساعها وتحصينها ومتانة بنائها وعلو جدرانها وضخامة أبوابها وتوافر ملاحقها. ويرجع ذلك للبعد الإنتاجي لهذه الأبراج التي تفترض توفر عدة ملاحق من اسطبلات ومخازن لحفظ مواد وأدوات الإنتاج. ثانيا لوجود هذه المباني معزولة وسط عشرات الهكتارات من الحدائق والهناشر الملحقة بها مما يفترض أن تكون حصينة أمام محاولة السطو والسرقة أو أي هجوم محتمل من أي نوع. فالحديث عن أمن مستتب بالضواحي لا يمكن التسليم به في تلك الفترة. وهو ما يظهر جليا من خلال المراسلات[1] الخاصة بهذه الضواحي، حيث تكثر الحرائق وعمليات السرقة وجرائم القتل[40]. فمسألة الأمن في الضواحي لا تزال نسبية رغم كل الجهود المبذولة في هذا الصدد وخاصة من طرف حمودة باشا[2]. والأمر يتطلب الكثير من التدابير لمن أراد ارتياد الضواحي وسكناها. ونظرا لهذه المعطيات المختلفة وقع اعتماد هذا الطراز المعماري في بناء إقامات النزهة في الضواحي. وقد كانت إلى جانب حصانتها فخمة جدا. وتحتوي على جميع مرافق الراحة. لكن هذا الطراز المعماري سيقع اسبداله بنمط جديد تخالطه عدة مؤثرات غربية من الناحيتين التصميمية والزخرفية. تسمى هذه العمائر بالسرايات. وقد ظهر هذا النمط المعماري وانتشر في القرن التاسع عشر وخاصة منذ ولاية حسين باشا باي. وذلك نتيجة التشبع الكبير بالتأثيرات الغربية في هذا الميدان وغيره، واقتباس الكثير من العادات الغربية في الأكل واللباس والأثاث. و يظهر ذلك جليا منذ ولاية أحمد باشا باي[41]، وعلى هذا النمط ستبنى دار الباي بحمام الأنف وقصر الصالحية بالمحمدية، والسرايا الجديدة بحلق الوادي، وسراية البحر بقرطاج، وقصر السعادة بالمرسى، وقصر التاج، ودار الناصر باي ودار الطيب باي أيضا. هذا ناهيك عن سرايات الأمراء والأعوان التي انتشرت في جميع الضواحي: منوبة وأريانة والمرسى والكرم. وتتميز هذه المباني خاصة بغياب الأفنية الداخلية المكشوفة. وباحتوائها الشرفات المفتوحة والمشربيات الخشبية. واعتمد في بنائها على تصاميم جديدة غير مألوفة وتختلف كليا عن مخططات الأبراج. وتحتل عادة مساحات أقل من الأولى. كما نلاحظ اختفاء العديد من المرافق، وتوزيع جديد للفضاءات الداخلية للمبنى كالاسطبلات وبقية المنافع التي تكون عادة منفصلة عن الجزء المخصص للسكن. وقد تحدث كل من بيرم الخامس والحشايشي عن هذه الازدواجية في النمط المعماري لقصور الضواحي. فوضّحوا لنا أن بعضها كان على النمط التقليدي القديم وبعضها على النمط الأوروبي، لكنه في المقابل لم يذكروا تفاصيل الاختلاف وتميز كل نمط عن الآخر وقد أدى تقليد هذا المثال للبناء الذي اتبعه الباي

والوزراء وسائر الأعيان إلى تقليد أغلب الناس لهم فظهرت بين سيدي بوسعيد وحلق الوادي قرى وعدة أبنية على النمط الغربي المذكور[42].

4. عمارة الأبراج خلال القرن التاسع عشر بين الموروث المحلي والتأثير الأجنبي

لم ينف هذا التطوّر الكبير تمسّك بعض وجهاء مدينة تونس وأعيانها بالنمط التقليدي للقصور الموروث من الفترة الحفصية. وتابعوا رغم حدة التغيرات الاجتماعية والسياسية والمعمارية تشييد بعض الأبراج خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و يعد برج محمود بوخريص بجهة المعلقة بالضاحية الشمالية لمدينة تونس من أهم ما تم تشييده خلال هذه الفترة. وسنوضّح من خلال دراسة هذا المثال خصائص تغيّر عمارة الأبراج المخصصة للإقامة الموسمية خلال هذه الفترة.

يقع برج محمود بوخريص غرب قرطاجنة حيث يشرف على كامل جهة المعلقة وجانب كبير من قرطاجنة. وقد كانت هذه الجهة على غرار ساحل قرطاج وكامل الظهير المتصل به من ناحية الغرب خلال الفترة الحسينية جزء من «قيادة حلق الوادي والمرسى». وتذكر وثيقة «تحديد الأماكن وأسماء الحارسين لها «لسنة 1279هـ = 1862م القرى والمشايخ المكوّنة للأحواز الشمالية مع ضبط حدود كل واحدة منها بما في ذلك «مشيخة المعلّقة»[43]. ونشير في هذا الصدد أن لفظ «المعلقة» وقع استخدامه منذ الفترة الوسيطة للإشارة لمنطقة قرطاجنة. فقد ذكر ابن عذارى أن أهل تونس يطلقون على هذه الجهة تسمية المعلقة:» ويسميها أهل تونس اليوم بالمعلقة»[44]. ونجد نفس الإشارة عند ابن خلدون حيث يذكر «حنايا المعلقة». وقد أورد ابن أبي دينار خلال القرن السابع عشر إشارة تدل على تغيير كبير طرأ على هذا المجال:» فلم يبقى منها إلا بقية خراب يعبر عنها بالمعلقة فيها أماكن كان يستقرّ بها الماء»[45]. ويفيدنا ذلك أن المجال المشار إليه بالمعلقة قد انحسر بشكل كبير خلال هذه الفترة، حيث لم يعد يشمل سوى الموقع المتاخم للصهاريج الرومانية. و يعني ذلك ان المعلقة تمتد جنوب المرسى وشمال دوّار الشط وغرب سيدي بوسعيد وشرق سيدي داود. واستنادا إلى ما ورد في أغلب الوثائق المشار إليها ومن خلال تقصّ حدود كل مشيخة على حدا وبالنظر لمنتهى كل من مشيخة سيدي بوسعيد ومشيخة المرسى، يتسنّ لنا القول أن منطقة قرطاجنة تمتد إجمالا بين جهتي المرسى وسيدي داود. يحدها من الجنوب الطريق الرابطة بين سيدي بوسعيد وتونس. ويمتد هذا الحد حتى يبلغ تخم سانية بن خالد حيث ينتهي بالطريق الشمالية المؤدية للمعلقة ومنطقة البحر الأزرق. ويمر الحد الشرقي للمنطقة بنظيره التابع

لتراب مشيخة سيدي داود حتى يبلغ ‹‹كدية الزعتر››، ويمتد حتى يصل أطراف سانية الزموري وتخم سانية الغمادي جنوبا. ثم ينعطف إلى الشرق ليمر بحد سانية الجزيري وسانية الخلادي وسانية الدوفاني لينتهي إلى البحر من هذه الناحية. وتعود هذه المنطقةلنظر شيخ المعلقة[46]. يعتبر البعض جزء من جهة المرسى نظرا لقربه الشديد لها حيث يقع على طرف حدها القبلي. وقد حددت وثيقة تملكها موقعها على أنه «بالمرسى بالمكان المعروف بأبي خريص». ويعود إرداف المرسى بتخصيص شهرة الموقع ونسبته لمالك البرج بعدم استقرار الموثّق على موضع محدد لها. فلا تقع هذه السانية داخل مجال المرسى تحديدا وإنما على طرفه مما يطرحها خارجه أغلب الأحيان. وهو ما يفسر شهرتها باسم مالكها نظرا لتفردها بمجال لا توجد به قصور أخرى تؤكد شهرته وحدوده بوضوح في الأذهان.

موقع البرج

وكانت هذه السانية تعرف سنة 1199هـ = 1784م بـ»سانية قزدغلي» لمالكها محمد بن عامر[47]، الذي اشتراها في أوائل صفر 1175هـ = 1761م من مالكها يوسف بن محمد خوجة الحنفي الذي اشتراها بدوره من محمد قزدغلي آغة الصبايحية الترك ابن المرحوم مصطفى التركي في 1173 هـ =1759 م[48]، وذلك بشهادة أبي العباس حميدة شاهد بيت المال وولده أبي الحسن علي. وحصل على الجزء الثاني المكون للسانية على وجه الهبة من أبي عبد الله حسين باي. ويعرف هذا الجزء منها بسانية الضاوي. وتحتوي على قطعة أرض مشجرة بأعواد زيتون. وإثر تعاقب عمليات بيع وشراء مختلفة استقرت هذه السانية على ملك حمدة الشباب[49]. واشتملت حينها على ثلاث قطع مختلفة. فقد استقر على ملك المذكور في البداية قطعتي أرض بدون بناء: «**جميع الطرفين أرض بيضا**»[50]. يحد الأولى شرقا سانية الحلاوي وسانية قارة برني وشرقا فتاتة والقبي وجوفا السيد الداي وحبس سيدي الظريف. ويحد الثانية قبلة الحاج عمر والأمين علي جعفر وشرقا طريق وجوفا القبي وغربا فتاتة. ثم أضاف إليها في وقت لاحق «جميع الأرض البيضا وبها البعض من تخم الهندي الكاينة قرب كدية الزعتر من مرسى قرطاجنة وتعرف بحفرة القفصي»[51]. يحدها قبلة الفقيه عثمان دمدوم وأرض الجري لحمدة الشباب

وشرقا بير مريش للسيد مصطفى آغة وجوفا طريق سيدي بوسعيد الباجي وغربا الشيخ دمدوم. ثم أضاف إليها «جميع أنقاض السانية المشجرة عنبا وتينا وتعرف بمالكها السعيدي»[52]. يحدها قبلة بن خليفة وشرقا السيد الباي وجوفا طريق وغربا قارة برني. كما مثلت السانية المشجرة عنبا وتينا وزيتونا وإجاصا المعروفة بالحجرة المنقوبة الكاينة بحومة برج غريضو بمرسى قرطاجنة جزء من هذه السانية. يحدها قبلة أرض الخوجة الأصرم وشرقا أرض فتاتة وجوفا أرض المعاجني لمحمد غريضو وغربا سانية الخلادي وأرض فتاتة. كما نجد من مشمولاتها أيضا «جميع أنقاض السانية المشجرة عنبا وتينا المتخمة بالهندي»[53]. يحدها قبلة الشيخ فتاتة ومن الناحية الجوفية والشرقية سانية الخوجة قارة برني وغربا طريق. وقد استقرت هذه القطع المذكورة على ملك حمدة الشباب وفق طرق ووسائل مختلفة. فقد كانت القطعة الأولى جزء من أحباس الجري. قام محمد غريضو بمعاوضتها بواسطة نائبه علي الخضار الشواشي من الحاج سالم الجري مستحق الحبسية بمبلغ قدره تسعماية ريال في 21 ذي الحجة هـ 1215= 1800. اشتراها بعد ذلك محمد هارون الأندلسي في أواسط جمادى الثانية 1254هـ = 1838م من ورثة محمد غريضو. بشهادة العدلين أحمد القروي وأبي عبد الله محمد بن عثمان. باعها هذا الأخير بدوره لمحمد العربي البشير حفيد الشيخ سيدي البشير. ليبيعها في شعبان 1260هـ = 1844م لحمدة الشباب بثمن بلغ تسعمائة وخمسين ريال بشهادة أبي عبد الله محمد الحداد وأبي محمد حمودة ابن الشيخ محمود بن محمود. وحصل على القطعة الثانية بالشراء من أحمد باشا باي في 24 رمضان 1260هـ = 1844م بشهادة أبي الحسن علي الحداد وأبي العباس أحمد بن الضيّاف. وقد استقرت هذه السانية على ملك الباي المذكور بموجب وثيقة استرعاء بشهادة حامد بن حسن العوني من سكان المرسى وعمر بن محمد بن جودة من سكان المعلقة وصالح بن علي الطرابلسي بن جودة وعلي بن خميس الجبالي من سكان المكان. كما حصل أيضا على السانية الثالثة بالشراء من الحاج سليمان بن الشيخ عثمان دمدم في أوائل جمادى الأولى من 1262هـ = 1845م بشهادة علي الطويبي. ثم اشترى هذه الأملاك مجتمعة داخل حدود السانية محمود بن أحمد بوخريص أحد كتبة ديوان الإنشاء[54]، جميع السانية الكبرى وما ألحق بها بجميع ما اشتملت عليه من الأبراج والبناءات والغراسات القديمة والحادثة بعشرون ألف ريال تونسية صغرى في أوائل محرم 1266هـ بشهادة محمد الطيب بوخريص وأحمد النقبي. وتكون بذلك السانية وما اشتملت عليه من بناءات مختلفة من إحداث حمدة الشباب. وقد قام المالك الجديد محمود بوخريص بعد حصوله عليها بإضافة قطعة أرض أخرى مشجرة زيتونا وتينا ولوزا وزعرورا. وكانت هذه القطعة المضافة على ملك أبي عبد الله محمد المتهني ابن سالم القيزاني باش بواب بباردو المعمور والذي توفيّ في أوائل شوال 1250هـ = 1834م. فباعها ورثته لأبي عبد الله محمد حمدة بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن خالد بستمائة وخمسون ريالا.

وتمّ ذلك في الرابع من شوّال 1250هـ ليقوم ببيعها فيما بعد لمحمود بن أحمد بوخريص في رجب 1272هـ = 1855م بشهادة محمد بن حسين بن فايزة والشريف يوسف بن محمد. ولما توفيّ محمود بن أحمد بوخريص في جمادى الثانية من سنة 1308هـ ورثه أبنائه أحمد ومحمد الطيب وابنته عايشة. ثم باعها ابنه محمد الطيب بوخريص في جمادى الثانية 1318هـ = 1900م للإخوة محمد ومحمد البشير أبناء محمد الشاذلي الغرياني، ثم اقتناها الآباء البيض خلال سنة 1903م. وقاموا بتثبيتها في خانة الأملاك العقارية. وقد كانت تتكوّن حين اقتناء الآباء البيض لها من ثلاث قطع تبلغ مساحتها اثني عشر هكتارا. ويحدها قبلة سانية مشجرة زيتونا على ملك بسيس، وشرقا طريق وجوفا سانية بوخريص وغربا السانية المذكورة وملك لبسيس. واشترتها الدولة التونسية خلال سنة 1964م. واضطلعت منذ ذلك التاريخ بوظائف متعددة. وقع ضمّها سنة 2004 إلى المتحف الأثري بسيدي بوسعيد. وانضوت بالتالي تحت إشراف وزراة الثقافة والمحافظة على التراث.

مثال لامتداد سانية بوخريص والطرق المؤدية إليها.

صورة جوية لبرج سانية بوخريص ومختلف البناءات التابعة له.

5. المكوّنات المعمارية

تبلغ مساحة البرج والبناءات ألف وستمائة وثلاثة وستون مترا مربعا. كما تحتوي هذه السانية على عدد من الآبار. يتكوّن برج السانية من طابق سفلي وطابق أرضي معتلى عليه يتوصل إليه عبر مدارج يسيرة توجد بالمدخل الرئيسي، بالإضافة على مدارج ثانوية تقع بالدويرية.

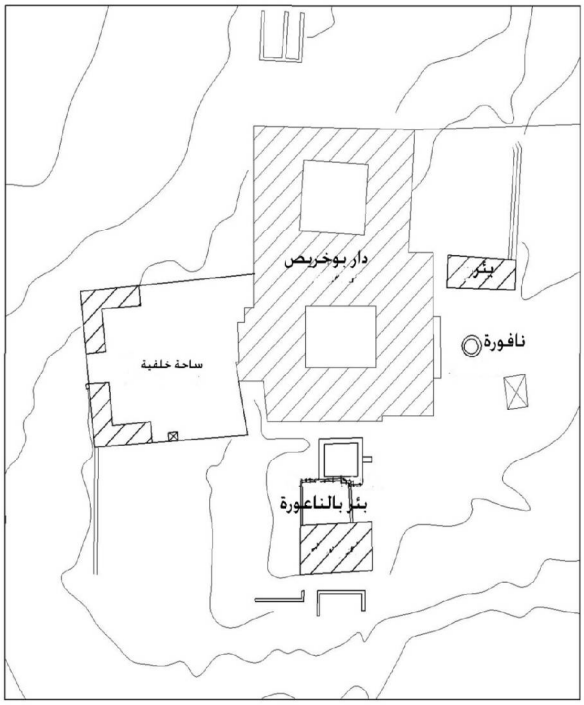

مكونات الموقع

5. 1. الواجهات الخارجية

تتميز واجهات هذا القصر ببساطة معمارها. وتتجه الواجهة الأمامية إلى القبلة. وتقتصر عناصرها المعمارية على مدارج المدخل والتي تنطلق من الجانبين وتلتقي عند المدخل مكونة شكلا هرميا صغيرا ذي قمة مسطحة. ويحفها درابزين من الحديد المطروق. يتخذ المدخل شكلا مستطيلا ينتهي بقوس نصف دائري تعلوه مشابك من الحديد المطروق ذات أشكال مختلفة ومتداخلة. كما تتميز هذه الواجهة أيضا بنوافذها المستطيلة التي تنتهي بقوس نصف دائري على غرار المدخل. وتحتوي هذه الواجهة على اثني عشر نافذة. توجد ستة منها بالطابق

السفلي والست الأخرى بالطابق الأرضي وتتوزّع بالطابقين أنصافا إلى جانبي المدخل. وتنتهي الواجهة بطنف محزّز. تعلوه شرّافات مربعة تخلو من الزينة وتضفي على المكان صارمة زائدة لا تتلائم مع المشهد الطبيعي المحيط بالبرج. وتمتد على الجهة الغربية للواجهة الأمامية الواجهة الجانبية للدويرية والمخازن. يتخلّلها صف من النوافذ المستطيلة الشكل، في حين يظهر مبنى البئر في شكل بناء متقدم يتوسطه باب مربع كبير ذي مصراعين.

وتتميّز الواجهة الغربية بالبوابة الكبيرة ذات الباب المقوس المضيئ لفناء الخدمة. ويوجد على جانبي هذه البوابة مدخلين صغيرين مستطيلين. كما تشتمل هذه الواجهة على بعض كوات متباينة الأشكال والأحجام. ويتكرر نفس المشهد البسيط على الواجهة الشرقية التي تخلو تماما من العناصر المعمارية. ولا يوجد بها سوى فتحات نوافذ الطابق الأرضي المستطيلة المسيّجة بمشابك الحديد. وتعتبر الواجهة الجوفية الأكثر تواضعا من الناحية المعمارية. فلا يوجد بها بالإضافة إلى جدران الحوش الخلفي للخدمة سوى فتحات الغرفة الرئيسية للبرج والمصطبة المطلة عليها.

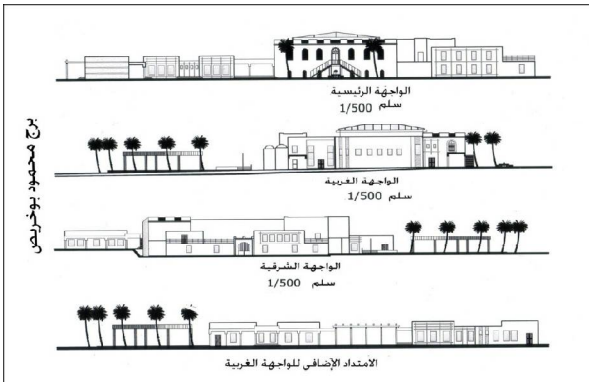

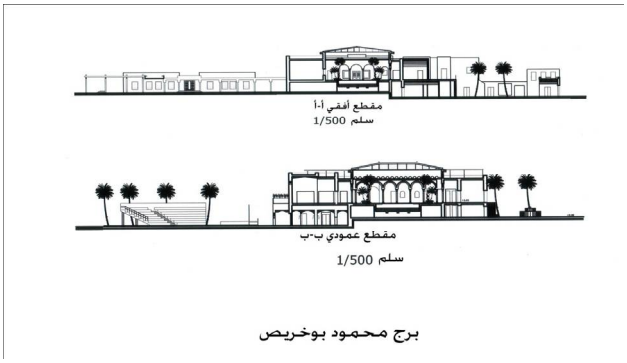

برج محمود بوخريص

5. 2. الطابق السفلي

يتكوّن هذا الطابق إجمالا من مخازن واسطبلات ومرافق الخدمة. يقع مدخله في الجهة الغربية للبرج. وتنتظم وحداته حول صحن مكشوف أو ما يعرف بـ «حوش». يوجد عند المدخل مخزن من كل جانب. يلي ذلك إلى يمين الداخل إسطبل للدواب. يجاوره بهو صغير تعلوه أقباء متقاطعة. ويوجد في أحد أطرافه مدارج تؤدي للطابق الأرضي. ويواجهه من الناحية القبلية زريبة لتربية الحيوانات. كما يوجد بالجهة الجوفية إسطبل كبير تعلوه أقباء معقودة. ويرتبط بمدخل منفصل يقع بالناحية الجوفية ويفضي إلى ساحة مكشوفة يوجد بركنها الجوفي مسكن الحارس. وتحتل ركنها الشرقي مخازن. ويوجد بالجهة الشرقية للبرج مخزن وصهريج ماء. ويمتد على الجهة القبلية تحت مدارج المدخل الرئيسي قبو طولي لم نتبيّن وجه استغلاله.

برج بوخريص

5. 3. الطابق الأرضي

يضمّ هذا الطابق مساكن المالك وعائلته. ويقع الوصول إليه عن طريق صعود مدارج يسيرة تتقدم مدخله الرئيسي الذي يتوسّط الجهة القبلية. يفضي المدخل مباشرة إلى سقيفة مستطيلة الشكل تتوسّط غرفتين كبيرتين ذات شكل مستطيل. تتصل الغرفة القبلية الغربية بغرفة أكبر حجما تتصل بالغرفة الغربية المشرفة على الفناء الداخلي للبرج. وتتصل غرفة السقيفة القبلية الشرقية بـ»بيت الماء» حيث توجد صهاريج تتصل بالجابية. وتفضي هذه السقيفة إلى صحن مكشوف مربع الشكل تتوسطه جابية يحيط بها حاجز مفرغ من الحديد المطروق. وتكسو أرضية هذا الفناء بلاطات رخامية بيضاء مربعة الشكل. وتحيط به من جميع جهاته أروقة تستند عقودها المتجاوزة إلى ثمانية عشر سارية رخامية تعلوها تيجان حلزونية، بالإضافة إلى بعض الزخارف النباتية ذات الأغصان المتعرّجة والأخرى ذات النتوءات البارزة.

وتحيط بمجنبات الأروقة أربعة غرف مختلفة الأحجام ثلاثة منها بالقبو والمقاصر تتجه

جميعها نحو الفناء المكشوف. يحيط بمدخل كل منها إطار رخامي تعلوه وزرات رفيعة من الخزف الأسود تفصل الإطار عن كسوة الخزف المزجج ذي البريق المعدني القادم من ورشات القلالين والتي تغطي واجهات الغرفة المشرفة على الرواق إلى حدود مبتدى سقوفها. وتحتل الجهة الجوفية أهم غرفة في القصر. يحيط بمدخلها نافذتين مستطيلة الشكل. ويحفها إطار مشابه لإطار المدخل. تتخذ هذه الغرفة شكل الحرف اللاتيني **T** . فرشت أرضيتها بالرخام الأبيض وكسيت جدرانها كاملة بمربعات الخزف اللامع على غرار جدران الأروقة. تغطي أجزائها الأمامية سقوف خشبية مسطحة. تحمل أرضيتها الداكنة رسوما جميلة ذات ألوان زاهية. وقد طغت عليها رسوم النباتات الصغيرة التي تتفرّع منها الزهور والأغصان المتشابكة المختلفة الألوان. كما نحتت بقطره صرّة منقوشة ومطلية بالدهان المذهب يتدلىّ منها قنديل لإضاءة القاعة. ويعلو إيوان هذه الغرفة سقف خشبي على شكل قبة متدرجة ذات قاعدة مضلّعة. وتعتبر العنصر الأكثر زخرفة ورونقا وجمالا من بين جميع عناصر القاعة. وتعكس ألوانها المتدرجة والمتناسقة شدّة العناية التي حظيت بها هذه الغرفة. وتتوزّع الرسوم أيضا على أرضية داكنة وقعت صباغتها باللون القاني. تنطلق من مركزها مضلعات ذات أبعاد ثلاثة يكوّن التقائها ما يشبه مظلّة مستديرة ذات ألوان زاهية. في حين حمل الإطار المثمّن الأضلاع والمنضَد أشرطة حزامية من الزخارف النباتية المتعرّجة، تتخلّلها وريدات منحوتة ومذهبة موضوعة على أبعاد متساوية رسمت بألوان داكنة وفاتحة على قدر كبير من التناسق والتناسب.

ويوجد على الجدار الشرقي لهذا الإيوان نافذتين كبيرتين تعلوها قمريتين مستطيلتين تتوسطها ثلاثة إهليليجية الشكل. وقد كسيت جميعها بزجاج ملوّن على قدر كبير من الجمال. وتشرف هذه النوافذ على مصطبة كبيرة تطلّ على الجهة الخلفية للسانية. ويتصل إيوان الغرفة من الجانبين بمقاصر تعلوها أقباء برميلية مدهونة باللون الأبيض. تتصل المقصورة الغربية بمدخل يفضى للمصطبة السابقة الذكر والتي تتصل بدورها بمدارج مؤدية لحوش الخدمة الشرقي حيث توجد مساكن الخدم. وتتصل المقصورة الشرقية بغرفة صغيرة تعلوها أقبية متقاطعة. تطل منافذها على السانية. كما تتصل هذه الغرفة من الناحية الأمامية الغربية بمدخل يفضي إلى بهو مستطيل يعلوه قبو برميلي يفضي إلى فناء صغير غير مسقوف. يتخذ شكل مستطيل. يوجد في ناحيته الغربية جناح الحريم المتكون من أربعة غرف. يؤدي المدخل المذكور إلى بهو مستطيل مبلط بمربعات جليز فاخر. وتكسو جدرانه مربعات خزفية ملونة. تحتل جهته الغربية غرفتان لهما نفس الحجم وتشرف كليهما على الدويرية الواقعة غرب البرج. ويوجد في الناحية القبلية للبهو مدخل يفضي إلى فناء مكشوف يشرف على موانئ قرطاجنة وهضبة جبل

المنار. ويوجد بطرف الجدار الشرقي للبهو المذكور مدخل يفضي إلى غرفة مستطيلة الشكل تتصل بدورها بأخرى لها نفس الحجم تتصل بثالثة يعلوها قبو برميلي ويفضي مدخلها الرئيسي إلى الرواق الشرقي لفناء البرج. ويحتل الركن الشرقي للرواق الجوفي بهو صغير تعلوه أقباء معقودة توجد بآخره مدارج تفضي لمخازن الطابق السفلي المشرفة على حوش الخدمة الشرقي.

ويوجد بالمجنبة الشرقية غرفة ثانية لها نفس حجم وشكل الغرفة الجوفية أي أنها ذات إيوان مربع الشكل وتتصل بمقصورتين جانبيتين. وتتميز عن الأولى بقلّة زينتها وتواضع زخرفها الذي اقتصر على البلاطات الرخامية أرضا والمربعات الخزفية في كسوة الجدران، في حين خلت الأسقف من عناصر الزينة. وتوجد بالمجنبة الغربية غرفتين تتصل الأولى ببيوت السقيفة الغربية. وتتصل الثانية بالقبو المتصل مباشرة بجناح الحريم.

برج بوخريص

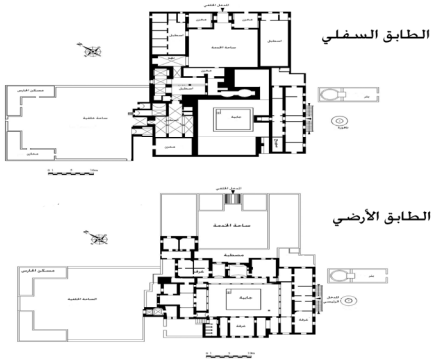

ويعدَ وجود بعض العناصر ضمن مكونات هذا البرج مثل الطابق العلوي الجزئي في طرف الصحن وتعدد الأروقة والملحقات كالدويرية والمخازن والإسطبلات المختلفة ووجود سانية متعددة الأقسام، زيادة عن حجم مساحة المنزل ورفعة المواد المستعملة، من أهم معايير التميّز في هذا البرج. كما يتميز ببعض العناصر التخطيطية التي قلّ وجودها بأبراج النصف الأوّل من القرن التاسع عشر حيث حافظ في مجمله على الهيكلية العامة للبرج المتعارف عليه منذ الفترة الحفصية. ويشبه هذا البرج إلى حد كبير من حيث هيكلته العامة وانتظام وحداته برج العبدلية الكبرى بالمرسى. وتتلخَص في الفناء المكشوف الذي تحيط به الحجرات المختلفة الاستعمالات، بينما تتركّب الغرف من بيت ومقصورتين جانبيتين، أما على مستوى الزخرفة ومواد البناء المستعملة فقد كان أغلبها من صنع محليَ فالخزف اليدوي المستعمل وقع صنعه بالقلالين حيث حمل موضوعات لصور مألوفة ، وإذا ما استثنينا تلك العناصر المضافة خلال

نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لكان بإستطاعتنا افتراض نسبة هذا البرج إلى العهد الحفصي. وكما أن استخدام المرمر المتناوب الألوان والجليز الأبيض والأسود أو «جناح خطيفة» بكثرة في مثل هذه المباني هو طراز يعود استعماله إلى الفترة الحفصية.

ونتبين من خلال الوصف المتقدم أن هذا البرج حافظ وبعناية شديدة ملفتة للنظر على النمط العام لعمارة الأبراج التي تعود لأواخر الفترة الوسيطة وبداية الفترة الحديثة بمختلف خصائصها. فقد التزم مخططه بطابع التربيع والتكعيب إجمالا بمدخل رئيسي وعدة مداخل ثانوية. كما تتوزع وحداته السكنية على جوانبه الأربعة، وهذه الخلايا لها نوافذ تفتح مباشرة على الفناء المكشوف ذي الأروقة بالإضافة إلى أخرى تطل على السانية وتشرف على مناظر طبيعية خلابة. ويبدو ذلك مختلفا عن القصور التي شيدت في ضواحي مدينة تونس خلال القرن التاسع عشر.

ويبيّن لنا هذا العمل إجمالا جانب من تطوّر الأنماط المعمارية بضواحي مدينة تونس خلال أواخر الفترة الوسيطة والفترة الحديثة. والتي سيطرت عليها عمارة الأبراج إلى حدود بداية القرن التاسع عشر. حيث ستتخلص من هذا الطراز المعماري تدريجيا لتتبنّى نمطا جديدا وهو السرايا والذي سينتشر في أغلب الضواحي. وقد كان المشهد العمراني الضاحوي يتكوّن عموما من قصور وأبراج البايات، ثم من تلك التابعة للأعوان والأثرياء والتي عادة ما تكون أقل فخامة من الأولى. ثم في مرحلة موالية مداشر الفلاحين المحيطة بهذه المنشآت الملكية والتي رغم أنها العنصر الغالب على هذا المشهد فإن المصادر المتاحة لا توفر تفاصيل كافية عنها. ويمنعنا ذلك من ضبط حدود دقيقة ورسم ملامح واضحة عن هذا النسيج العمراني الممتد حول قصور النزهة بشكل قطعي. وسيتواصل تطور وتنوع الأنماط المعمارية المعتمدة في هذه الجهات خلال الفترة الاستعمارية حيث ستظهر عمائر مغايرة تماما لما ذكر.

هوامش البحث:

1 ـ كريم بن يدر،1993، ص. 308.

2 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق100، ملف208.

3 ـ Pellegrin Arthur, 1953, p.88

4 ـ محمد حسن، 1999، ج.1، ص.50.

5 ـ أ.و.ت، دفتر 3992.

6 ـ Pellegrin Arthur,1953, p.366

7 ـ هو أبو عبد الله بن عبد الرحمان بن احمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الابّار، ولد ببلنسية

و وفد إلى تونس في 4 محرم 636 و سنه حوالي أربعين سنة، من الشعراء الملازمين لأبي زكرياء الحفصي و ابنه المستنصر بالله، ألف العديد من الكتب منها درر السمط في خبر السبط،انظر: احمد الطويلي، الأدب التونسي في العهد الحفصي.

8 ـ أ.و.ت، دفتر 3992.

9 ـ بية عبيدي، 2010.

10 ـ كريم بن يدر، 1993.

11 ـ كريم بن يدر، 1993. أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف507-508.

12 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف 510، وثيقة 58902.

13 ـ الراشدي،1985، ص.230، 387، 470.

14 ـ محمد حسن،1999، ص. 332.

15 ـ بيرم الخامس، 1999، ص. 351.

16 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف506، صندوق44

17 ـ ابن أبي الضياف،1989، ج. 6.

18 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف510، صندوق 44 .

19 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 509، صندوق44.، أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 174، صندوق6.

20 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 509، صندوق 44، وثيقة عدد 58815.

21 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق16، ملف 174، وثائق 12-13-14-15.

22 ـ أ.و.ت.السلسلة التاريخية، صندوق16، ملف 174، وثيقة 19.

23 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق16، ملف 174، وثيقة22.

24 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق16، ملف 174، وثيقة24.

25 ـ Serge Santelli, 1995, P.6، 2010 .بية عبيدي

26 ـ Maurice Bois, 1886, p.13

27 ـ الصغير بن يوسف، مخ. عدد 18688.

28 ـ J.Revaut, 1974, p. 33

29 ـ الوزير السراج، 1985، ص.235.

30 ـ الوزير السراج، 1985، ص.236.

31 ـ ابن أبي الضياف، 1989، ج.3، ص. 102.

32 ـ Charles Lallemand,2000, p. 34

33 ـ ابن أبي الضياف،1989، ج.2، ص122، - حسين خوجة، 1988، ص.117، Ahmed Saadaoui, 2001, p.140

34 ـ Ahmed Saadaoui, 2001, p.170.

35 ـ الصغير بن يوسف، مخ. عدد 18688.

36 ـ ابن أبي الضياف،1989، ج.2، ص.184، - السنوسي، 1994، ج.1، ص.107.

37 ـ رجاء العودي،2003، ص.77.

38 ـ Nej Djelloul, 1995, p.133

39 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 174، صندوق16 ، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 156، صندوق16، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 506، صندوق44، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 507، صندوق44، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 509، صندوق44، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 510، صندوق44، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 511، صندوق44، - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ملف 512، صندوق44.

40 ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 16، ملف 174، ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 16، ملف 156، ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف 506، ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف. 507، ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف.509، ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف.510، ـ أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف.511.

41 ـ رضا الضيف، 2001 .

42 ـ بيرم الخامس،1999، ص.464.، الحشايشي، 1994، ص. 343.

43 - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف 509.

44 - ابن عذارى، 1983، ج.1، ص. 34.

45 - ابن أبي دينار، 1967، ص. 79

46 - أ.و.ت. السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف 509.

47 - أ.م.ع. ملف 8097.

48 - أ.م.ع. ملف 8097.

49 - يدعى أبو عبد الله محمد ويدعى حمدة بن علي الشباب، من أبناء الحاضرة وأبوه أمين صناعة الشعر. تعلق بخدمة أحمد باي في دولة عمه. ولما دالت له الدولة رف منزلته وقربه وأولاه خططا هامة كالقمرق. توفي في سنة 1263 هـ = 1846م. ووزعت تركته في الديون. انظر ابن أبي الضيّاف، 1989، ج.8، ص. 65.

50 - أ.م.ع. ملف 8097.

51 - أ.م.ع. ملف 8097.

52 - أ.م.ع. ملف 8097.

53 - أ.م.ع. ملف 8097.

54 - تقدم لخطة الكتابة في ديوان الإنشاء وكان من أواسط رجالها في الوقت، توفي في ذي القعدة 1263 هـ = 1847م . شغل خطة نايب باش كاتب. انظر ابن أبي الضيّاف، 1989، ج.8، ص.66.

صورة رقم 1- صورة عامة للبرج

صورة رقم 2- المدخل الرئيسي للبرج

صورة رقم 3- الواجهة الجنوبية

صورة رقم 4- الواجهة الغربية

صورة رقم 5- الرواق الداخلي

صورة رقم 6- مدخل الغرفة الرئيسية

صورة رقم 7- الفناء المكشوف

صورة رقم 8- إحدى الغرف

صورة رقم 9- مدخل البرج

صورة رقم 10- سقيفة المدخل

صورة رقم 11- سقف من الخشب الملون

صورة رقم 12- غرفة ذات مقصورتين

المصادر و المراجع

الأرشيف الوطني، السلسلة التاريخية، صندوق 16، ملف 174.
- السلسلة التاريخية، صندوق 16، ملف 156.
- السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف 506.
- السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف. 507.
- السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف.509.
- السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف.510.
- السلسلة التاريخية، صندوق 44، ملف.511.

أرشيف الملكية العقارية، ملف 8097.

ابن أبي دينار ابو عبد الله محمد، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس، 1967.

ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1983.

ابن أبي الضيّاف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، 1989.

الحشايشي محمد بن عثمان، العادات والتقاليد والتونسية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، سيراس للنشر، تونس، 1996.

الباشا حسن، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، بيروت، 1999.

جباهي مبروك، سيرة الوزير المملوك شاكير صاحب الطابع 1805-1837، شهادة كفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2002.

ضيف رضا، الحياة اليومية في البلاط الحسيني في عهد احمد باشا باي 1837- 1855، شهادة كفاءة في البحث، تونس، 2001.

بية عبيدي، سواني وقصور الضاحية الشمالية لمدينة تونس خلال الفترة الحسينية 1957 1705- ، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 2010.

Bahri Raja, Restauration et réaffectation de la résidence d'été à Carthage : Borj Bou Khriss, mémoire de fin d'étude, Tunis, 2007.

Revault Jacques, Palais, demeures et maisons de plaisance à Tunis et dans ses environs, Paris, 1984.